مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــــرام

التاريخ: ١٩٧٥/١٠/٩

# حرب أكتوبر ونهايات الأساطير الاسرائيلية

بقدر ما كرهت وكرهنا يوم ٥ يونيو ٦٧ بقدر ما أحببت واحببنا يوم ٦ اكتوبر ٧٣ . وما اخالني كرهت في عمري كله بل في عمر هذا البلد وتاريخه الطويل العريض مثلما كرهت الخامس من يونيو السيء الطالع السيء السمعة السيء الاثار والابعاد . وليس ادل على بعد وعمق ذلك اليوم الخطير المتكود من ان فشل ٦ اكتوبر — وكم له من اياد — كان اطيب « واسرع » ما فيه انه انتشلنا من بحار الظلمات والهوان والتمزق التي اغرقنا فيها هزيمة يونيو لنثبت وجودنا ولنؤكد أننا احياء واقوياء ولا يمكن لزوحنا ان تقهر : وبقيت ثمة آثار له ، فمازلنا بعد نمشي في محو آثار يونيو خطوة خطوة . ولا يحسبن احد ان هذا تقليل من شأن ٦ اكتوبر ، بل على العكس هو ايمان حقيقي متطرف ومتزن معا بانه اليوم العظيم المجيد حقا . ولكم اجهشت فيه بفيض من دموع الفرحة ورد الاعتبار . وكلنا كنا ذلك الانسان المصري والعربي في تلقائية رد فعل « الكظم » والانتظار . بينما رحت اعيش انباء العبور وانتصارات قواتنا المسلحة الباسلة ، كما حييته باصدار كتابين عن ٦ اكتوبر والعاشر من رمضان في العامين الماضيين .

**غير أن احتفاءنا بيوم خالد كالسادس** من أكتوبر ومعركته ينبغي أن يتناول امرين : **الاول** الوقوف عند جلاله وما صنعه لنا وماجره على عدونا .. لا وقفة المشدوهين بالمعجزات الخارقة .. وقد كان بحق على حد تعبير الرئيس السادات معجزة بكافة المقاييس — — وانما بمحاولة تأمله لدى الاشادة به. وهو لا يخلق ولا يبلى على كثرة الرد والتذاكر ما دام القصد تعزيز الثقة والتثبت من امكانيته بل ضرورة تكرار هذه « المعجزة الربانية البشرية » ، فالله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه وفي عون نفسه وفي عون الحق . **والثاني** هو تدارس موقفنا اليوم وارتياد آفاق المستقبل على ضوء معركة العاشر من رمضان وبروح ٦ اكتوبر . وانما اعتبر هذا الجانب بالغ الاهمية ليقيني من كون المعركة لم تنته مع اسرائيل . فالموقف الذي يبدو في ظاهره « محلولا » ما برح « معقدا » ، كما أن الموقف العربي الذي يلوح شديد التعقيد والاثارة لا بد له من الانفراج ومن التجمع مجددا .

## تأمل ٦ اكتوبر ونتائجه

بلغ الغرور باسرائيل بعد ٥ يونيو حدا متزايدا كأنما لا يقف عند نهاية ! .. وتبارى قادة اسرائيل في تصريحات « **تكريس العدوان** » و**ابديته** « **فجولدا مائير — مثلا — تصرح في سبتمبر ٧١ « ان الحدود ستكون حيث يقيم يهود ، وليس على خطوط الخريطة** » . **وديان يقول في نفس الشهر « ان اسرائيل لن تتخلى عن اي مكان يستوطنه اليهود** »

وجاءت حرب اكتوبر فأصبح «جنرالات اسرائيل » الذين كانوا يكثرون عن انيابهم « يكثرون » فقط ، وينهارون ويتبادلون الاتهامات ! وتحولت النكت الى نكد ! وضاعت كلمة « الى الابد »

التى قرنها ديان ببقاء اسرائيل فى الاراضى العربية المحتلة ، وبقى له ضياعه الى الابد ! ولم يمض شهر واحد على تصريحه بأنه ليس أمام مصر فرصة ولو بعد عشر سنوات أن تشن حربا على اسرائيل ، الا وبدات مصر الحرب — كما بدات سوريا — وعبرنا مستحيلات المانع المائى واكتسحنا وحطمنا استحكامات وحصون خط بارليف

تغيرت الدنيا مع حرب اكتوبر . حتى صحافة الغرب التى طالما تحاملت على العرب وانحازت الى اسرائيل « تأدبت » واعتدلت وأفاقت وكتبت مالم تألفه من قبل . واكتفى بشهادة صحيفة واحدة هى الديلى تلجراف ، كانت من الد خصومنا ، كتبت فى نوفمبر ٧٣ تقول « مهما كانت النتيجة النهائية للحرب العربية الاسرائيلية الرابعة فان الرئيس السادات قد أحرز بالفعل نصرا شخصيا فريدا . فتلك الساعات الست الاولى من ٦ اكتوبر حينما عبر الجيش المصرى قناة السويس واجتاح خط بارليف قد غيرت مسار التاريخ بالنسبة للزعيم والدولة والجيش المصرى والعرب والشرق الاوسط كله »

**ويصف الجنرال حاييم هرتزوج فى كتابه « حرب الغفران » الايام الاولى لهذه الحرب الطاحنة التى « دقت عظام اسرائيل » وصفا تفصيليا تبدو فيه « التوجمات » التى لم يكن يجسر على ابدائها حينما كان يؤدى دوره كمعلق عسكرى لاذاعة اسرائيل خلال المعركة**

واذا كان أول ما تبادر الى اذهاننا ومشاعرنا وتعبيراتنا مع قهر اسرائيل فى حرب اكتوبر هو قولنا اننا حطمنا تلك الاسطورة وضربنا ادعاءات التفوق الاسرائيلى ، فان كاتبا اسرائيليا هو « امنون كابليوك » قد أصدر مؤخرا كتابا خاصا فى هذا الشأن اسمه « اسرائيل .. نهاية الاساطير » .

ولقد يكون من المفيد ونحن نتأمل نتائج حرب اكتوبر أن الخص وأعرض « زبدة » ذلك الكتاب المهم الذى يضع كثيرا من النقط فوق كثير من الحروف ، كما قد يعتبر « فرض كفاية » وخاصة ان شهد به كاتب من معسكر الاعداء .

**ولقد تناول « كابليوك » الاساطير الاسرائيلية التى انتهت ، واحصاها عشرا .**

**❶ تهاوت اسطورة « الامر الواقع » وسياسته التى انتهجتها اسرائيل طويلا وكانت « مطرقة » القوات المسلحة المصرية فى اكتوبر ٧٣ تدق المسامير على تابوت سياسة الامر الواقع الاسرائيلية،** فى نفس الوقت الذى تتقدم فيه عبر سيناء المحتلة وتلقى بجثث الاسرائيليين فى العراء ! وكانت اسرائيل تحلم باستمرار هذا الوضع المحتل « الواقعى » عشرين سنة الى أن تضمن « سلاما » — او بالاحرى استسلاما — مع العرب يصحبه تغيير جذرى فى حدود ٦٧ . وربما ساعد اسرائيل على خلق هذا الوهم تجارب لهم مع العرب بعد حرب ١٩٤٨ ، فلماذا لا يتكرر الشىء نفسه هذه المرة ؟! « ولم يشأ قادة اسرائيل أن يضعوا فى اعتبارهم التغييرات العميقة فى العالم العربى وديناميكيتها منذ ٤٨ ، ولا علاقات القوى العالمية . استنام الاسرائيليون على حقبة كان فيها العرب ضعفاء ، والعامل الدولى يعمل فى غير صالحهم . ولم يشأ قادة اسرائيل أيضا أن يفهموا معارضة العرب المستمرة للوضع القائم الذى يمثل توسعا جديدا لاسرائيل على حسابهم ، واستند القادة الاسرائيليون على جدار قلعة عدم المبالاة » .. وهكذا برهنت الايام على أن الامر الواقع لم يمنع شن الحرب فحسب بل كان سببها .. الامر الواقع كان « هشا » فأصبح « هشيما » تذروه الرياح !

**٢ سقطت اسطورة كون « الحدود الامنة تروع العرب » .. تلك «المزوفة» التى ظل الاسرائيليون يرددونها سنوات طويلة باعتبار ان تلك الحدود الامنة هى اكثر ضمان ضد هجوم العرب فى المستقبل** .. كانت «شريمة» قادة اسرائيل التى اتفقوا عليها رغم كل المنازعات الفرعية تقول بأن « خطوط وقف النار تمثل حدود الامن المثالية التى تروع العرب عن مجرد التفكير فى مهاجمة اسرائيل بفضل عمقها الاستراتيجى » ! ولقد « اتخم » الرأى العام الاسرائيلى بعد يونيو ٦٧ بتصريحات عن أهمية « الاستيطان » الاسرائيلى فى الاراضى العربية المحتلة ، وأقيمت المستعمرات بالفعل ، ثم مع الدقائق الاولى لاندلاع حرب اكتوبر كان الشغل الشاغل هو اجلاء سكان مستعمرات الجولان السبع عشرة وبغير جدوى ، فقد كانت المدفعية السورية تقوم بعملية حصاد ! كذلك ثبت أن التمسك بشرم الشيخ التى كان يقول عنها ديان « أفضل شرم الشيخ بدون سلام على سلام بدون شرم الشيخ ! »لم يكن بفيد فقد جاء الحصار من باب المندب !

**٣ اسطورة « مادية » هوت حتى الثمالة ! تلك ما رددته اسرائيل من أن خط بارليف لايمكن اقتحامه ، فقد تبدد فى ساعات وتبددت معه الـ ١٥٠٠مليون ليرة اسرائيلية التى انفقت على انشائه بخلاف المصاريف « غير المنظورة »** !
وبعد سقوطه توالت التبريرات والاحاديث عن « الجبنة المليئة بالثقوب » كما زعم ديان .. ولم يكن مليئا بالثقوب غير غروره وحماقاته !

**٤ الاسطورة الرابعة التى تلقت « ضربة قاضية » كانت اسطورة اسرائيل التى تؤكد ان مخابراتها معصومة من الخطأ** ! وربما كانت لها ارصدة « خارجية » سابقة اعطتها هذه « الزهوة » والهالة الاسطورية ، مثل خطف « أخيمان » سنة ٦٠ « وشحنه » الى اسرائيل ولا من رأى ولا من درى ، ومثل الاعتداءات على العلماء الالمان بمصر ، ومثل الاعداد لحرب يونيو ٦٧ ، ومثل سرقة الزوارق الحربية الخمسة من ميناء شربورج الفرنسية سنة ١٩٦٩ . ولكن المخابرات الاسرائيلية أفلست « نجأة » وعجزت عن كشف نوايا المصريين والسوريين قبيل حرب اكتوبر وافتضح زيفها ، وفوجئت بالحرب تماما مثل رجل الشارع الاسرائيلى !

**٥ من الاساطير التى لقنها الاسرائيليون لبعضهم البعض ان « العرب لايفهمون سوى لغة القوة » . والخلاصة لديهم: يجب ان نلقن اى اعتداء عربى — ولو اعتداءا صغيرا او عارضا او ردا على اعتداءات اسرائيلية — درسا ، ونرغم العرب على دفع الثمن ونعاقبهم بصورة لايتجاسرون بعدها على القيام باية محاولة جديدة** . وبعبارة اخرى أن الذى يسكت العرب ويخيفهم هو سياسة القوة والردع واستعراض العضلات . ومن منطلق تلك « الفلسفة » نستطيع أن نضع قائمة طويلة عريضة ابتداء من تدمير معامل تكرير البترول « بالزيتية » فى السويس خلال اكتوبر ٦٧ ، ومرورا باسقاط الطائرة المدنية الليبية فوق سيناء فى فبراير ٧٣ وللتباهى الاسرائيلى بمقتل اكثر من مائة رجل وامرأة وطفل أبرياء، وانتهاء بالمعركة الجوية « المفتعلة » قبل حرب اكتوبر بأسبوعين ، والتى اسقطت فيها ١٣ طائرة ميج سورية . ونسى الاسرائيليون فى غمار ذلك كله انه لم يكن « هزرا » الشعار المصرى المرفوع «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة » .

**٦ لعل امضى سلاح «نفسى» شهرته اسرائيل حتى كاد عدد غير قليل من اصدقاء العرب ومن المحايدين . بل اعدائهم — يصدقونه هو ذلك الزعم بان العرب لم يخلقوا للحرب » .. وصدقت اسرائيل نفسها هذا القول وخلقت منه اسطورة ربما ساعدتها عليها هروب**

**ماضية لم تكن حروبا بمعنى الكلمة بل انسحابا وهزيمة بغير قتال مذكور .**
ويقول المؤلف « ونحتاج الى كتاب ضخم كى ندون كل الاستهانات وكلمات الاحتقار التى تلفظ بها جنرالات اسرائيل العاملون منهم والمحالون الى الاحتياط حول الجندى العربى وضعف الجيوش العربية » .
ويمضى المؤلف قائلا « وتجيء حرب اكتوبر ومعها مفاجآتها » الكبرى : المقاتل العربى! ووجد الجندى الاسرائيلى نفسه أمام مقاتل عربى شجاع منضبط لديه قدرة قتالية ممتازة بفضل تدريبه ، مقاتل مستعد للتضحية بكل شيء . وكانت « المفاجأة اكبر » تجاه الجندى المصرى الذى أبدى بسالة فائقة واقتدارا خارقا فى حين أن الاسرائيلى تعود على احتقاره والاستهانة به » ! وربما تحتاج الشهادات والتصريحات التى صدرت بعد حرب اكتوبر عن شجاعة وكفاءة المقاتلين العرب الى كتاب اكثر ضخامة .. الى « كتاب أبيض » ولو أنه كتاب « شديد السواد » على اسرائيل !

**⑦ العالم العربى منقسم ، وسلاح البترول «اداة دعائية» تلك كانت الاسطورة السابعة التى قررتها وصدقتها اسرائيل ثم اتضح ان العرب فى « الازمات » يقفون صفا واحدا ويصفون خلافاتهم . ولقد كانوا يقولون فى اسرائيل «لكى يتمكن العرب من مهاجمة اسرائيل بحظ من النجاح يجب عليهم أن يتحدوا اولا .**

**وهذا محض خيال فهم ممزقون دائما وابدا بخلافاتهم الداخلية ، ولهذا فالعالم العربى عاجز عن وضع سياسة منسقة ، فكيف يستطيع أن يشن حربا جماعية ؟!»**

تلك كانت لدى اسرائيل اشبه « بعقيدة منزلة » . ويقول المؤلف « أن الاسرائيليين طالما قالوا : العرب هم احسن حلفائنا ! ولكن حرب اكتوبر ألغت هذه الكلمة من القاموس السياسى الاسرائيلى ، كما أن العرب أدركوا اهمية سلاح البترول لهم واستخدموه بفاعلية وجرأة وفى توقيت مناسب ، ولولاه ربما كان للحرب مصير آخر أقل ملائمة للعرب » .. وسؤال من عندى : هل نعتبر ؟!

**⑧ يكاد يشغل عدد الفلسطينيين فى « الارض المحتلة » اكثر من ثلث عدد سكان « اسرائيل » والاسطورة التى « تباهى » بها الاسرائيليون فى هذا الصدد هى قولهم : ان الفلسطينيين فى الارض المحتلة يرضخون وسيرضخون ، وكانت ثمة شواهد فى « المعاملات » قوة خيوط تلك الاسطورة . ومن هنا نشأت التصريحات التعسفية التى تخصص فيها قادة اسرائيل : لا يوجد هناك شيء اسمه فلسطين! الفلسطينيون فى الاراضى المحتلة استكانوا لوضعهم ولاستمرار السيطرة الاسرائيلية الى مالا نهاية !**

ولكن جاءت حرب اكتوبر وزلزلت الارض زلزالها ! وانهار الوهم الاسطورى عن الفلسطينيين داخل الاراضى المحتلة . وثار السكان العرب . وتكاثرت الاعمال الفدائية داخل الارض المحتلة . وبلغ عدد الفدائيين العرب العاملين داخل اسرائيل آلافا . وتصفيت وهوجمت ٤٤ مستعمرة اسرائيلية ١١٦ مرة خلال تلك المرحلة . اذن فيوجد شيء « هناك اسمه فلسطين . واضيف : وسوف يأتى اليوم الذى لن يوجد فيه شيء هناك سوى فلسطين !

**⑨ اكد القادة الاسرائيليون مرات عديدة اسطورتهم : الزمن يعمل لصالح اسرائيل ! ثم جاء زمن ثبت ان الزمن ليس ملكا خالصا للاسرائيليين ، وان جمود القيادة الاسرائيلية لم يفهم » ان الزمن يدور فى فراغ ، وانه مرتبط بعوامل عالمية كثيرة » .**

**⑩ ويكمل الاسطورة السابقة الاسطورة العاشرة والاخيرة التى سقطت ، وفحواها « المهم ما يفعله اليهود » . وتلك اسطورة من صنع بن جوريون مؤسس « دولتهم »**

اذ ان من ماثوراته ومن محفوظات تلاميذ المدارس الاسرائيلية ابتداء من «رياض الاطفال» قوله «لايهم ما تقوله الامم .. المهم مايفعله اليهود . المهم مانحققه نحن فى اسرائيل ولا يستطيع الغير تغيير شىء بخطبهم البليغة ولا حتى منظمة الامم المتحدة» ! وبطبيعة الحال لا يوجد فارق مذكور بين هذا الذى كان يردده و «بفرسه» بن جوريون ، وما كان يتصايح به «هتلر». ومن هنا وجه الشبه بين الصهيونية والنازية ! وجاءت حرب اكتوبر لتثبت ان ما يفعله «اليهود» ليس مهما وليس هو كل شىء ، وان هناك ، ارادة اخرى ومضادة تستطيع ان تفرض نفسها اذا ارادت :

وكانت الصدمة «فى سقوط تلك الاسطورة الاسرائيلية فوق الاحتمال . اخذ واحد من الجنود الاسرائيليين العائدين بعد حرب اكتوبر يتمتم لاحد الصحفيين فى هذيان وفى ذهول : «قبل ثلاثة اشهر كنت اعتقد اننى جزء من القوة المتفوقة فى الشرق الاوسط .وعندما هدد السادات بالحرب ضحكت وقلت لنفسى بالسخف ! خلال ساعتين سنكون فى دمشق ، وخلال ٣ ساعات فى القاهرة لقد استهنت بالعرب! لماذا ! لاننى تعلمت بالمدارس ان احتقرهم ! واننا الاقوياء وهم الضعفاء ! كنت اعتقد انه لا اهمية لما تقوله الامم ، المهم ما يفعله اليهود ! والامم هى كل الشعوب التى خلقها الله باستثناء الشعب اليهودى . فهو الشعب المختار ، وهى شعوب خلقت لخدمته ، ولهذا فهو يعتبر من حقه سحقها ! ولكن كل هذا راح .. راح .. راح» !

وهذه — بالضبط — اسرائيل واساطيرها ..

ولقد يكون فى المستطاع ان اضيف اساطير عديدة اخرى تهاوت مع حرب اكتوبر ، منها انها اسرائيل تستطيع الاعتماد على نفسها «لتأديب» العرب ، فى حين انها صرخت واستنجدت فى اليوم الرابع بأمريكا وانجدتها للاسف الشديد ! ومنها ان «اسرائيل واحة الديمقراطية» كما «قلقنا» هيوبرت همفرى نائب جونسون بكثرة ما ردد هذا الادعاء «الغربى» ! فى حين ان بنحاس سابير — مثلا — صرح بعد اكتوبر — تعقيبا على سكوته عن «مشروع جاليلى» المكلف المستحيل والذى كان يقضى بتكثيف الاستيطان فى الاراضى العربية ، بل برر موافقته على المشروع فى سبتمبر ٧٣ رغم انه كان غير مرتاح اليه نفسيا وماليا بقوله «لولم اوافق على المشروع لسحلونى فى الشارع وسجنونى» ! الخ .. الخ .. فضلا عن ان كثيرا مما جاء فى تقرير «اجرانات» يكشف مزيدا من الاساطير الاسرائيلية المتهاوية .

ولكن — رغم كل شىء — المهم الا يرهبنا داعى الاساطير ، والا يخدعنا تداعى الاساطير !

**مصطفى بهجت بدوى**